

وفي مقصورة — وقتئذ —

من مقاصير الحمراء ، المقمة
بأريج السك ، وشذى المنبر ،
كان أبو عبد الله آخر ملوك
بني الأحمر جالساً القرفصاء في
عرايب من محاريب الصلاة ،
يمجد الله ويندب حظه ، ويودع

أيامه المظرة للساجمة على أمواج الماضي في آخر
ليلة من ليالي الحمراء العابسة ١

وتولت للطلقات تدمم في آفاق غرناطة ،
فلم أن الساعة قد أزفت ، وأمر الله قد وقع ، فقام
من فوره متثاقلاً وانحط على شرفة من شرفات
الحمراء فترأت له جبال سيرانفادا Sierranevada^(٢)
وقد تمتممت بركام من الثلج الفضي الذي يلمع في
أعطاف الفجر ؛ وإنه كذلك وإذا بنسبات الفجر
الرقيقة قد هبت من أعالي هذه الجبال حاملة معها
أنفاس المروج ، وعطر الأحراج ، إلى غرناطة
وحراشها ١

ثم أغمض عينيه ، ووضع رأسه بين يديه ،
واستسلم لتفكير عميق ممض ، وراحت مواكب
الذكريات تتزاحم على نفسه ، وتثقل صدره ، ولم تدم
طويلاً لأن غمضة الأحراج ، وهممة الجداول
الساجية التي تشق ردهات الحمراء قطعت عليه سلسلة
تفكيره فرفع رأسه الثقيل ورمى بطرفه ثانياً في ضوء
الفجر فرأى غرناطة ، غرناطة حبيته التي صب
عليها أجداده من قبل أنوار العظمة والجمال ،
غارقة في أمواج من الخضرة والنضرة والسكون
لعميق ...

(٢) معناها سلسلة جبال الثلج

نَفْسُ الْعَزِيزِ

أَقْصُوصُ شَرْقِيَّةِ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ الْعُمْدِيِّ

(إلى غرناطة ...)

لمبه ... يا زهرة مدائن الأندلس الجميلة ؛
يا موطن النور والحب والأزهار ١
أين ذهبت السعادة التي كان يرفل في أتوابها
سادتك الأجداد ؟ أين قصورك الصيفية الشرقية
البديعة ذات المنائر الطاعنة في أجواز الفضاء ؟
ما الذي حدث يا غرناطة حتى قطعت عن الوجود
لحنك المطرب ، وأغانيك الشجية ؟
(الغرناطي : جوزى زورلا)

في صباح مكفهر الوجه ، صربد الأفق ، وفي
ساعة مشثومة من ساعات الدنيا الفاصلة لمجال التاريخ
وقعت أجمع فاجعة دامية حملها تاريخ الاسلام ،
وطويت آخر صفحة من صفحات النبوغ للعرب
في بلاد الأسبان ١

كان ذلك في صباح ١٠ يناير من سنة ١٤٩٢
ميلادية عند مادوت في سهل التيجيا Vega للفسيح
ضربتان من مدفع نصب على أعلى برج من أبراج
الحمراء ، مخطرة ملك إسبانيا الجديد فرناند المتحصن
بمدينة سانتافي Santefé^(١) التي لا تبعد كثيراً عن
غرناطة ، أن يتحرك ليتسلم زمام الأمر ومقاليد
الحكم في حمراء غرناطة ١

(١) مدينة في التيجيا بناها الكاثوليك أثناء حصارهم

لغرناطة

شوارع غرناطة وقد أقفرت من كل شيء تحف
به كوكبة من رجاله المخلصين وبلغ آخر العمار فاحتضنه
سهل الفيجا، فلاحته خلال أغصان للذار الخوذ
اللامعة، والزماح التألفة، ودمدمة الجيش الاسبان
المنتصر يشق طريقه إلى غرناطة...

وهناك في مكان معين قابلته أولى طلائع الجنود
الاسبانية وقد نسجت في الجو من عثيها رداء
عكراً حجب قرص الشمس، وقد ملأ هزيزها
الآفاق وفي مقدمتها ذلك العلاج الأسباني
(بدر و فازالو دي مندوزا) الذي يعتبره للتاريخ
أعظم موقد لنار الحرب على غرناطة. ونظر هذا
إلى أبي عبد الله نظرة الشبهة، أتبمها بتحية صفراء
مزقت أحشاء الأمير العرب الشمس

وتتابعت مواكب الأسبانيول تملأ السهل
والوعر، وهي تصب في سهل الفيجا أروع حماسيات
قشتالا، وأعذب ألحان أراغونيا، وابن الأحمر
سام واجم تفتسه الآلام، وتنوشه الهوموم من كل
جانب، ولكنه أبدى من رباطة الجأش، ومثانة
الرجولة، ما بهر أنظار الفرسان وهم يعمرون به سريماً.
وبينا طرفه بموج في هذه الأمواج إذ لاح
له كوكبة من الفرسان تتوسطها مركبة مرصعة
بكرات الفضة، وعلى واجهتها الخلفية المرتفعة
يتذبذب في وهج الشمس صليب ضخيم الحجم هائل
المنظر، من تحته يجلس الزوجان السعيدان فردناند
وإيزابلا ومن حولهما صفوة مختارة من الفرسان
شاكي السلاح!

وطبقاً للشروط القاسية التي تعهد بتنفيذها هذا
الأمير الشمس فقد انحط من على فرسه بسرعة البرق

وصعدت من صدره زفرة أرسلها في جوف
القعر إزاء هذه المناظر الساحرة التي حركت
إحساسه، وألهبت عواطفه، وهزت أسلاك قلبه،
وأكارت كامن شجونه ثم طفرت من عينيه دمعتان
ساخنتان، وعيناه ضئيلتان بمثل هذا الماء في جميع
الأدوار القاسية التي مرت به، ولكن الرجال
ساعات تتلاشى فيها رجولهم وكبرياؤهم

وراح صدره يملو ويهبط، وعيناه محدقتان
إلى غرناطة وقد بللتهما الدموع ونسجت عليها ثوباً
شفافاً تراءت له هذه المدينة الساحرة من خلاله
وهي مضطجعة في هذا السهل المرع المخضل،
كأنها قطعة من سحب ناصع ضارب في سماء
صافية!!

وغرق ابن الأحمر في بحار التأملات، وما أفاق
إلا على قول الحارث بن حلزة:
أجموا أمرهم عشاء فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن نصها

ل خيل، خلال ذاك رغاء
فأطل من شرفته ليرى ما الخبر، فاذا بحاشيته
تضطرب في فناء السباع، وقد أعدت كل معدات
السفر، ولم يبق إلا نزول السلطان ليأخذ طريقه
إلى منفاه!

غامت مقاصير الحمراء في عينيه، وقد كانت
بهجة النفوس، ومتمعة الخواطر، ونزل ابن الأحمر
يجر أذيال الخيبة وتقل الزمن، وحساب التاريخ،
متثاقلاً منها لكا يترشح في مشيته كالثلج، واخترق
الفناء فامتطى صهوة جواده الأدم فاندفع به في

أبواب غرناطة بينما الأهازيج تجلجل في أجواء الفيجيا
ووقف سيد الأمس وطريد اليوم ، يندب حظه
وملكه المضاع ، ثم زفر زفرة محرقة صرقت أحشاءه
وسقط منشياً عليه ، وما أفاق إلا على طلقة مدفع
أحدثت دوياً شديداً في سهل الفيجيا ...

نهض وقد علت بوجهه الشاحب حبيبات من
الرمال ، أبعد ما بردته ثم أقبل على جواده فرأى هناك
بصيداً على قنة برج من أبراج الجراء صلياً من الفضة
الصفية مؤذناً بأفول الهلال ، وعلى برج آخر حلت
محل راية للقرآن الراية القشتالية تنموج في الرياح
ومن هذا اليوم انقطع ذلك اللحن السباري
الحنون الذي ينصب في أذن للفجر هاتفاً : الله أكبر ...
الله أكبر ... وارتفعت ضربات النواقيس ، ودق
الطبول ، وزانم القسوس ، وسقطت غرناطة في
أحضان المسيحية !

تحرك ابن الأحمر من مكانه ، وامتلأ صهوة
جواده ، ولحق به أصحابه ، فلفهم الأفق بردائه
وهناك تحت أقدام جبال التناج اضطجعت قرية
صغيرة على سفح من سفوحه قد لفها للضباب بردته
تسكنها بضع عائلات عربية رقيقة الحال ، تشتغل
بإزراعة

فزل ابن الأحمر على عين من عبونها ليقضي
(سواد) نهاره هناك ، وعلمت بمقدمه جموع
العرب فتوافدت إليه تسكب بين يديه العبرات
الحرار ، وتندب ملكاً صرخته المصيبة ، وتثرته
الشهوات والأهواء !

عند ما اقتربت منه المركبة اللوكية ، واخترق
الصفوف ، ووقف في قلب اللوكب والحزن يحز قلبه
حزاً ، وشاهده في هذه الأثناء فردناند بهامته العربية
البيضاء المتأزفة فترت قليلاً في سيره ليسلب شرفه
هائياً وبخطم كبرياءه العربي ، ونظر إلى أبي عبد الله
نظرة فهم مضمونها فأخفى له هذا ، وقد أغمض
عينيه ، المحناة ما عرفتها ملوك العرب منذ الأزل ،
المحنة كان كابوسها الرهيب يتمثل له في لياليه
الآخيرة حتى أجهز عليه !

وتأذت أنظار الجمهور من هذه النهاية المؤلمة التي
حات بأمر المؤمنين سلطان غرناطة ومالقة والرية
أبي عبد الله سليل بني الحزرج !

ثم رفع السلطان رأسه وقد احمرت عيناه وأدلى
بيده على جبينه وأخرج مفاتيح المدينة وقدمها
لفردناند قائلاً :

« أيها السيد ! هذه غرناطة ملكاً لك ، وما قدر
الله كان ، فهأنذا أضع مفاتيح هذا للفردوس بين
يديك وأفوض إلى رحمتك وصدق إخلاصك حقوق
أبنائي^(١) »

ثم أشاح بوجهه وقد تفصد جبينه عرقاً ،
وظن الجمهور أن الأسباني وقد أخذته نشوة
النصر ، وتفتحت له جنان غرناطة ، ستأخذه حنوة
على هذا الأمير المنكود فيفيض على قلبه المسحوق
للمطف وحسن المعاملة ، ولكن المرة الكاذبة ،
سلبتا منه مميزات النفس البشرية فاستلم المقاليد
وتابع سيره في جموع المسيحية التي قاربت طلائعها

(1) Luisa banal: gli ultimi signori dell'al-hambra

فترأت لهم آفاق الأندلس في صحوة الفجر تبث
مماقي التهليل والتسبيح في النفوس ... هذه رحاب
الأندلس كلها قد بدت كالإسقاط الدور حالة غارقة
في أمواج الحضرة ، ضاحكة بمفاتن الطبيعة ؛ وهذه
خيالات القرى البيضاء قد لاحت من خلال أشجار
السرو والصفصاف كاللؤلؤ المنتورا وتفقد ابن الأحمر
مدينة أحلامه ، ليودعها آخر نظرة ، وأحر زفرة ،
إلى الأبد ! فرآها غارقة في سبات عميق وقد غسلت
أمواج القمر أبراجها المشمخة ومنازلها للساقية ،
فبدت تتلأل في ضمير الفجر كشاريخ من فضة
تهللت من أجفان السماء !

أثر هذا المنظر الساحر في نفسه فزفر زفرة
عميقة سجلها التاريخ في مطاويه ثم هتف هتافاً
عالياً :

الله أكبر .. الله أكبر ..

غرناطة .. غرناطة ..

وسقط تخنقه للمبرات في نحيب طويل !

في هذه الأثناء كان قرص الشمس المتهب قد برز
من خلال الجبال مهشماً تلك الغمام الرقيقة السابحة
في هذه الأجواء . وأفاق ابن الأحمر على قبسات
الشمس الدافئة وقد تفرحت أجفانه من فرط النحيب
بينما كان أصحابه ينشجون نشيجاً مؤلماً بفتت الأكباد
ويذب الجداد ، وتشجع أحدهم وقد آلمته هذه
المواقف التي تدمى للفؤاد فتقدم نحو السلطان وعلى
شفتيه بضع كلمات تقال في مثل هذه المناسبات
الموجعة تخفيفاً للسكر وترفهاً للخاطر المشرذم :

— صبراً يا عظيم الروح صبراً ... فلبعض

لم يمض على وصوله ساعات حتى أقبلت أمه
عائشة ، المرأة التي كان لها القدر الممل في هذه
القاجمة ، تحف بها جوع الخدم والحشم وقد حملت
من أبهاء الحراء كل ما خف حمله ، وغلا ثمنه !

وآذنت الشمس بالنيب ، وقبل أن تختبئ وراء
خرائب الأبدية ، وقبل أن تمناق فلولها هامات الجبال
المسكلة بمصائب الثلج ، آوى أبو عبد الله إلى مخدعه
يائساً وقد هد الحزن أركان قلبه ، وأكثت نار
المذاب فؤاده ، وانطرح على فراشه وعيونه تنفجر
بآلام أعظم قاجمة عرفها تاريخ البشر !

كان ذلك في اليوم الحادي عشر من شهر يناير
سنة ١٤٩٢ ، قبل أن تنفض ذكاه أشمتها الدافئة
على أعالي جبال البشرات Alpuxarrat أخذ
أبو عبد الله طريقه إلى إفريقية في غلس الفجر قبل
انبثاق النور ...

ولفهم سهل الفيجا بصمته الرهيب ، فلم تحس
لهم حساً ولا جرساً ، اللهم إلا حوافر الخيل توقع
اللحن الوجيه في مسمع الطبيعة ، وتلج على الوجود
سورة الخلود العربي المخلف في بلاد الأسبان
ونجاة ، كانت الخيل قد وصلت إلى أعتاب
جبال الثلج ، فافتحمت صخورها ، وتغلغل
في أحشائها ترهاها مرتفعاتها الداهية صعداً إلى
أعنان السماء !

وهنا بلغوا الدروة القصوي لهذه الجبال ،
وهنا نفت للعربي الخزرجي زفرته الأخيرة كأنفاس
الصيف ...

وأجال الفرسان أنظارهم من على هذا النخم ،

وقفته الأخيرة ، وزفر فيها زفرته المشهورة فلا تزال
حتى هذه الساعة تؤلف مزيجاً من الخرافة والتاريخ
في صدور الأسبانيول

يمر بها السائر فيحياها فتحتدم في نفسه ذكريات
الماضي المطر ، ويرنو إليها للبحار الأسباني وهو
معلق بسارية سفيفته في عرض البحر المتوسط فيطرق
مليا مشغول البال ، مبلبل الخاطر ، ثم يترنم بأغاني
شجية ومقاطع رومانسية تتعلق بأخبار العرب
وآثارهم ... هذه الربوة مشهورة في الفناء والتاريخ !
هذه il sospiro del moro « زفرة العربي »^(١)

محمد عبد الله العمودي
دبلوم دار العلوم

(القاهرة)

المصائب تمن ... ! ولها فؤائد فعالة عند ما تتموج
ذكرياتها في أذهان الأحفاد ... !

ولكن أبا عبد الله لم يعبأ بهذا ، بل أشار بيده
وقد خفضها قليلا إلى غرناطة الساحرة وهي تضعك
في نور الشمس وأجاب بكلام رقيق كنوم السحر :
— أواه ! أي نكبة تعادل نكبتى هذه ؟

ثم همز جواده الطاهر ، فابتلمته أحشاء الجبال ،
وغابت عن عينيه غرناطة ... إلى الأبد !

وركب البحر إلى (مليلا) على الشاطئ الأفريقي
وشخص نحو (فاس) عاصمة الأيالة الراكشية وبقيت
روحه متشحة بوشاح الحزن والكآبة طيلة حياته

(1) Yoseph meccabe : the splendour of moorish
spain

أما الربوة العالية التي وقف عليها أبو عبد الله

شركة مصر للغزل والنسيج

تقدم لكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة في اثمانها ...

رائعة في ألوانها ...

فبادروا باخذ طلباتكم